جامعـــــــــــــة بسكـــــــــــرة

كليـــــــــة الآداب واللغـــــــات

قســم الآداب واللغة العربية

محاضــرات في مقيــاس النقد الأدبــي والمعاصــر

لطلبة السنة الثانية ليسانس

شعبة: الدراسات اللغوية

المحاضــرة الثالثــة بعنــوان: إشكـــالات السيميائيـــة

إعداد الأستاذ الدكتور: بشير تاوريريت

السنة الجامعية: 2021-2022

1- إشكـالات السيميائيـة:

1-1- على المستوى النظـري:

إن النطاق الذي تشغله السيميائية والذي يتمظهر في علاقاتها الوطيدة بمجموعة من العلوم والمعارف، إنه نطاق يحول بينها وبين إمكانية التمركز في قلب النقد، نقول ذلك انطلاقا من بعض الإشكالات النظرية، يأتي في مقدمتها مشكلة المفهوم، ففي تعدد المفاهيم والتعاريف وتباين الخلفيات المنهجية والمنطلقات النظرية لدى أقطابها، كل هذه المسائل تحول بين المعرفة السيميائية المبلّغة والقارئ، ويتمظهر ذلك في جانب من جوانب القطيعة بين القارئ العربي والنظرية السيميائية.

إن هذه الاضطرابات المعرفية والمفهومية في الحقل السيميائي والمتمظهرة في تعدد المفاهيم أو المبادئ لدى منظريها، وفي ظل هذا التعدد تأتي اعترافات السيميائيين أنفسهم بقصور السيميائية وضحالتها، فـ ج. كوكي (J. Koky) يقرّ بأن الحديث عن السيميائية "يجري في اتجاهات مختلفة وبلا تمييز"[1]. وغريماس (Grimas) نفسه يعترف وبكل صراحة عام 1973 بأن السيميائية قد تكون موضة، ولم يستبعد أن يكفّ عنها الحديث في مدة لا تتجاوز ثلاث سنوات[2]، ويرى تودوروف أن السيميائية بقيت مجرد مشروع أكثر منه علما وبقيت الجمل التي تنبأ بها سوسير مجرد أمل[3]. وما نستشفه من هذه التصريحات هو أن السيميائية باتجاهاتها المتباينة بقيت مجرد اقتراحات أكثر من كونها مجالا معرفيا متميزا، هذا عن مشكلة المفهوم.

وفيما يخص تعدد المصطلح، فقد أحصى باحث معاصر وهو عبد الله بوخلخال هذا التعدد، فبلغ به ما يقارب تسعة عشر مصطلحا، ومن ذلك: "السيميائية، السيميولوجية، علم

---

[1] أعمال ملتقى(الأدب الجزائري في ميزان النقد)، ص 28.

[2] المرجع نفسه، ص 28.

[3] المرجع نفسه، ص335.

العلامات، الدلائلية،...الخ"[1]. ويبدو لي أن مشكلة المصطلح هي مشكلة ثانوية ذلك لأنه مهما تعددت المصطلحات تظل مفاهيمها واحدة في الأغلب الأعم، فالمصطلحات الرديفة لمصطلح السيميائية كلها تحيل إلى مضامين المنهج نفسه، سواء على المستوى النظري أو الإجرائي، فعلى صعيد الدلالة المصطلحية، لا فرق بين مصطلح السيميائية والسيميولوجيا، فهما مصطلحان مترادفان، بل إن ترادفهما ينبع أساسا من واحدية تجدرهما وانحدارهما من منحدر واحد هو علم الطب، فهما يدلان "على علم في الطب موضوعه دراسة العلامات الدالة على المرض"[2].

إن القول بواحدية المفاهيم وتماثيلها لا يلغي أبدا بعض التعارضات الجوهرية بين مختلف الاتجاهات السيميائية، وندلل بالاختلاف في زاوية النظر لبنية النص بشقيها الظاهر والخفي، حيث يقع الاختلاف فيما يخص العناصر المكونة لهذه البنية، ولعل هذا ما جعل مثلا سيميائية غريماس تشمل القواعد التي يخضع لها (العالم السردي) (فيقع الاهتمام خاصة بالبناء الوظائفي، تختل العلاقات بين الفاعلين أو القوى الفاعلية في مستوى العمودي والأفقي...)[3].

أما البنية الظاهرة (فإنها تتركب من الصياغة التعبيرية)، إذ يهتم الناقد بتحليل خصائص الشكل الأدبي والخصائص الأسلوبية، كما يحلل(علاقة اللغة بالسياق الخارجي). وفي مقابل ذلك نجد سيميائية جوليا كرستيفا تطمح إلى التعمق في المنهج الاجتماعي في النقد وتأصيل النظريات القولدمانية Goldmadilocien كما يحاول هذا الاتجاه استيعاب معطيات التحليل النفسي وصهرها ضمن التحليل الاجتماعي. والبنية العميقة تتكون من العوامل الخارجية التي عملت على ظهور النص الأدبي، من ظروف اجتماعية واقتصادية

---

[1] المرجع نفسه، ص75.

[2] O. ducro et T. Todorov: Dictionnaire Encyclopédique des Sciences du Langages. Lève publication. Edition du seuil.1972. P115.

[3] ينظر: محاضرات الملتقى الوطني الأول(السيمياء والنص الأدبي) ، ص 30.

وثقافية ونفسية في حين أن البنية الظاهرة تتكون من البنى اللغوية الخاضعة للقواعد التركيبية والإبلاغية[1].

وهكذا نلحظ كيف أن منطق الاختلاف يمس بأصابعه اتجاهين سيميائيين ادعى النقاد أنهما ينتميان إلى شجرة نسب واحدة، اختلاف تمتد أنامله من ناقد لآخر بين غريماس وجوليا، كل واحد بحسب ما تمليه عليه إيدلوجيته، اختلاف مس بؤرة النظر للبنية الظاهرة والعميقة فكان التميز بينهما واضحا، والسر في عدم انفراج الزاوية النقدية بين جوليا وغريماس مرده إلى أن الأرضية الألسنية للاتجاهين كانت واحدة، فالأصل الألسني هو الذي أنبتا فيهما مثل هذا التقارب في الطرح لدى كل من غريماس وجوليا، لاسيما على المستوى الإجرائي.

أعود إلى مشكلة تعدد المصطلح، أقول مستطردا ومفصلا أنه مهما تعددت المصطلحات تظل شحناتها النظرية واحدة، بل أن المشكلة لا تخط خطوط. ولا ترسم أحجاما سوداوية على جبين النقد السيميائي، لأن المشكلة تزول بزوال وعي وإدراك القارئ لهذا التعدد والذي يبقى دون إدراك المدار أو المفهوم الذي تشغله السيميائية. وما دام العجز في هذا المفهوم في علاقاته بالآفاق المعرفية والجمالية للنص، لا بد إذن من أن ينصب النقد حول هذا المفهوم بوصفه بؤرة الإشكال.

1-2- على المستوى الإجرائي:

ما يجب أن نؤكد عليه هو أن أزمة النقد السيميائي لا تنبثق كلية من تلك الإجراءات التطبيقية وإنما تنبثق أيضا من قصور المفهوم الذي يشغله النقد السيميائي، ذلك لأن الإجراء التحليلي ما هو إلا معلول أو نتيجة لعلة أو مقدمة لازمة لزوما ضروريا عما يفرزه المفهوم

---

[1] بيار جيرو: علم الإشارة، ص9. ثم ينظر قريش بن علي: السيميائية التاريخ والأسس العلمية، محاضرات الملتقى الوطني الأول(السيمياء والنص الأدبي)، ص30.

ولو كانت أزمة هذا النقد في ممارسته الإجرائية ما كانت هناك تصريحات السيميائيين المنظرين أنفسهم بالأزمة.

وإذا كان منظرو السيميائية في الغرب قد صرحوا بمعضلة السيميائية، فإن النقاد العرب الذين أسسوا للسيميائية في وطننا العربي لم يتوانوا في ذلك، وهذا ما يجسده اعترافهم بأزمة هذا النقد، فـ: محمد مفتاح يتساءل عن فعالية النقد السيميائي فيجيب عن استخدامه للسيميائية بعضها آفاقا لا واقعا.

وعبد المالك مرتاض المهموم بالسيميائية يتساءل وفي أكثر من موضع–من أين؟ إلى أين؟ وبأي منهج نقتحم النص؟ [1]، تساؤلات كثيرا ما تقود الناقد عبد المالك مرتاض إلى المزج في كثير من الأحيان بين السيميائية والتفكيكية، وهذا ما نلاحظه في دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة "أين ليلاي" لـ: محمد العيد آل خليفة، الذي ألفه سنة (1987) ونشرة سنة (1992) وكتاب "تحليل الخطاب السردي، معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية زقاق المدق الذي ألفه سنة (1989) ونشره سنة (1995).

إن هذا التضافر بين السيميائية والتفكيكية في عملية إجرائية واحدة نعده من دون هوادة مغالطة نقدية، أنها تكشف عن قصور الحقلين ويتمظهر ذلك التركيب الاستدعائي بين السيمياء والتفكيك، فلو كانت السيميائية قادرة على استنباط الروح الجمالي للنص ما كان مثل هذا الاستدعاء.

وإلى جانب عبد المالك مرتاض نلتقي بعبد الله محمد الغذّامي الذي عرف بتحليقه في فضاء السيميائيات غير المحدود، ألفيناه يصرح وبأعلى صوت باحثا عن منهج يتسق وينسجم مع ذاتنا وثقافتنا "أي منهج نقدي نأخذ به، وأي رأي نسعى إلى تكوينه، أي مدرسة نشكلها، لن تكون كلها سواء حوافز غرست –من قبل– في جبين الزمن السابق لوجودك بل

[1] عبد الله محمد الغذامي: الخطيئة والتكفير، ص 160.

مكونة لوجودك وليس إلا بعض صناعتها"[1]، وأمام هذه الحيرة والاضطراب المنهجي نتساءل من جديد عن الآفاق التي ينفتح عليها المشروع السيميائي، وهو تساؤل آخر يفصح عن أزمة السيميائية مرة أخرى: ترى ما دلائل التصريحات السالفة الذكر من النقاد السيميائيين عرب وأجانب؟ وهل ما تدعو إليه السيميائية واقعا بالفعل في نطاق علم اللسان؟ وإلى أي مدى يمكن اعتبار السيميائية علما صارما، ومبدع العلامة فيها هو الذي يدرس العلامة؟ أي: ربط العلامة بمرجعها، وكيف يمكن للسيميائية أن تكون علما موضوعا وهي تختفي خلف البدائل اللسانية (الكتابة، العلامة، النص) وهي متغيرات أو على الأقل عرضة للتغيير؟ وإذا كانت السيميائية تحاول الربط بين الإنساق كأنظمة رمزية، وبين ما تثيره هذه الأنساق من إيحاءات ودلالات، كإشارات المرور والألوان الثلاثة...إلخ.

إنها خطوة إيجابية ترتقي بالنص صعدا في سلم الحضارة الجمالية، غير أن هذا الارتقاء سرعان ما يتم وأدُه وذلك في اللحظة التي تعلن فيها السيمائية – بأسسها ومفاهيمها– دخولها على النص الأدبي دخولا آليا، وسؤال النقد السيميائي خاصة والنقد الاحترافي عامة ليس هو مجرد سؤال عن فكرة المرجعية كما ادعى عبد الله محمد الغذامي، فالغربيون لهم مناهج نقدية وهذه المناهج لها أصول فلسفية قامت عليها واستمدت منها عطاءها النظري، لكن هذه المناهج استنفدت لاستنفاد أصولها الفلسفية، فالجذر الفلسفي يستنفد، والذي لا يستنفد هو التصور النابع من الإبداع.

ونود الإشارة هنا إلى أن النقد الاحترافي الألسني سواء أكان بنيويا أم سيميائيا أم تفكيكيا، لا يمكن لهذه الموضات النقدية أن تأخذ موقعها الصحيح ضمن الخارطة النقدية الجديدة – باستراتيجياتها الجمالية– إلا في ضوء سؤال المفهوم فقط، المفهوم الذي لقي تحديداته وتقنياته في كتابات الشعراء المنظرين عربا كانوا أم أجانب.

---

[1] عبد الله محمد الغذامي: الخطيئة والتكفير، ص160.

والثابت لا المتحول أن الجمال الذي نتحسسه في العمليات السيميو إجرائية مرده إلى التصور الذي يمتلكه المبدع الناقد عن النص، فالتضافر بين آليات هذا التصور الشاعري، وآليات المنهج السيميو بنيوي هو الذي أدى ويؤدي وسيؤدي إلى موطن الجمال في النص الشعري، بوصفه صديقا لعوبا أو جاذبية مجهول، تشدك شدا وتؤزك أزّا.